تكلم الجمال فهدأ القلب

في خضم بحثي عن الجمال اخذت استرق السمع لهمس الفضاء، واطلت النظر في آفاق الزمان، وحدقت الى خفايا المكان علّني اهتدي الى واقع يلهمني خبايا ذلك القادم من الشفق البعيد، فوجدت المكتبات والكتب والمجلدات ورجال العلم والفقه يتحدثون عنه باسهاب من غير ان يلجوا عالمه، كأنه غاب عن ذهنهم ذكر اهمية المرأة، الكائن المكمل للرجل، مجسّدة الجمال النابض انوثة.

بدل ان يبرزوا دورها جعلوها اداة طيّعة بين ايديهم. استبد بها الرجل واستغلها لتخدم اهدافه، واستصغر المجتمع دورها وقلل من شأنها، والكثير من الانظمة السياسية حرم المرأة مساواتها مع الرجل، وهي، رغم كل ذلك، ما زالت تتحدى الصعاب وتجاهد لتصل الى هدفها من دون ان تلقى آذانا صاغية.

فمتى يدرك الرجل انها مكمّلته في الحياة وانها اقصوصة تحاكي الحقيقة؟ ومتى يتيقّن الجاهل انها نغم يبحث عن وتر؟ فلا المسافات، ولا المصاعب، ولا المشقات، تستطيع ان تحجب نور كينونتها لانها ستبقى دوما مرشدة كل انسان في سلوك درب الخير والحق والجمال.

ومهما طال الزمان واتسع المكان فان قدر المرأة ان تتساوى حقوقها مع الرجل، فهي شريكته في رسالة العطاء، والمحبة التي تقطن اعماقها تضفي على الوجود حركته، والجمال الذي تختزنه يعطى الضياء بريقه، ونظراتها تجعل من نسمات الاثير انغاما تتردد موسيقى في الاكوان.

لعل مساواة المرأة برزت لي بوضوح، عندما سافرت الى مينسك في روسيا البيضاء حيث اطلعت من كثب على واقع حياة المرأة هناك.

قد يتساءل بعضهم عن السبب الذي اثار اهتمامي واعجابي بامرأة مينسك، وما الذي اختلج في نفسي وجعلني اعتز بوجودي في ذلك البلد المضياف، وما هو الدور المهم الذي تضطلع به المرأة في مجتمع روسيا البيضاء رغم كثرة الآراء والاقاويل التي تنقل عن المرأة من تلك البلاد؟

اعترف، بكل تواضع، بان التحرر الفكري للمرأة جعل القبح يخبو امام الجمال، والعجرفة تنكسر امام التواضع، والمعاناة تتحول نشوة، والعطاء يستضيء بنور المحبة، والكبت والحرمان العاطفي ينعدمان فعل توسع مسؤوليتها، وهي تعمل مساواة تامة مع الرجل.

ما اجملك يا امرأة مينسك! كم انت قديرة وعظيمة، جميلة ومتواضعة، عاملة وفاعلة، عنصر حي في المجتمع. انت روح العطاء فيه، وانت تحدي الشقاء لاجل البقاء في سبيل بناء مجتمع مثالي يقود عالم الرجل الى العدالة والحق والمساواة. ومهما حاولنا الاكثار من الاطراء والتعمق في الشرح والاطالة في السرد تبقى الكلمات مجرد ادوات ووسائل اظهرت فشلها في ابراز جزء من كل قطرة من محيط جمال امرأة مينسك. يقول الدكتور جوزف مجدلاني في كتابه "مناجاة القلب والوعي":

"اجمل ما في الجمال انه ساكن الروح وثناياها

يستقر بهدوء بين صفائها وطواياها
يشرق عليها، وتشرق عليه بمزاياها
فلا تدري اكانت الروح مصدر الجمال...
ام الجمال من عطاياها؟".

فبفعل ما تتمتع به امرأة مينسك عامة من حسن الشكل ورقة الملامح، امسى الخيال انعداما، والفكر ارتحالا، والمعاني والصور في احتجاب، الى ان تكلم الجمال وهدأ القلم، فرنّم اناشيد سحرية ترنو اليها العين، ويختلج لها القلب، ويزهو بها الفكر. فاذ بي انسج الافكار واحوك من واقع المعاناة التي تعيشها المرأة هناك، اسطرا خطتها ذاكرة الزمان، وحفظتها الكواكب، وسمعت ترددها الاكوان:

– الجمال تحدٍ للشقاء خطّ دربا ترشد الى مملكة الذات.

– الجمال اوسع مدى واصدق الهاما من نكران حقيقة الوجود.

– الجمال قوة، عزة، رفعة، فيما الخمول صفة تكبّر وعجرفة.

– الجمال سحر تتنشقه وترتشفه حينما تراه يتجسد امامك بابهى الاعمال الكبيرة.

– الجمال رقة صدق المعاملة وفن التعبير.

– الجمال منشد الكبائر، فيما الزيف نقيضه.

– الجمال جبروت عدل عمله الخلق والابداع.

– الجمال واقع الحياة ولهفة المعاناة.

– الجمال اوسع من ان يُنشر في كتاب ويُكتب بكلمات.

وجمالك يا امرأة مينسك يغني الفكر، يضمّخ المشاعر، يشرق الروح فيبرز الابداع الفائر فينا.

كم انت عظيمة يا امرأة! بوركت وتبارك كل انسان اقتدى بنهجك وعطائك من اجل انسانية افضل ومجتمع يزخر باعمال نسائه الفريدة. فلندع نفوسنا تعي حقيقته.

المهندس طوني عبد النور